﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّلبيس والتّدليس في تعامل أهل الكتاب مع الإسلام

لما ذَكَرَ اللهُ تعالى عنهم أنَّهم يُلبسون الحقَّ بالبَاطلِ، أَردفَ ذَلكَ بتبيان نوعٍ من أنواع تلبيساتهم - وهو المذكورُ في هذه الآية - أنَّ طائفةً مِنَ أحبارِ اليَهودِ ذهبت إلى خَديعة المسلمين بهذا المَنزع، فقالواْ: آمنواْ بالَّذي أُنزل على محمَّد ﷺ وأصحابه صَدْرَ النَّهار، ثُمَّ اكفرواْ به آخرَ النَّهار، وعند ذلك يقولُ بعض المسلمين: مَا بالُ هؤلاء كانواْ مَعنا ثمَّ انصرفُواْ عنَّا؟ مَا ذلك إلَّا لأَنَّهم انكَشفت لهُم حقيقةٌ في الأمر فيَشكُّون، ولعلَّهُم يرجعون عن الإيمانِ بمحمَّد ﷺ [1]، وتلك خدعة ماكرة، تؤكّد ضلوع اليهود في التّآمر والختل والخداع، كما كان ديدنهم منذ القديم، ولا يزالون عليه إلى يومنا هذا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جمعُ طَائِفٍ، وهو الَّذي يَطوفُ، وذَلك اعتبارًا بطَوافِهم بالبيتِ وغَيرِهِ مِنْ مُتَعَبّداتِهم، ولِطَوافِهم في أَسفَارِهم، ثُمَّ سُمِّي كلُّ جَمعٍ طائفة[2].

"(الطّائفة) من الشّيء قطعة منه. وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النّور: 2]، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الواحد فما فوقه"[3]، وفي الحديث: «لا تزال طائفة من أمتّي على الحقّ»، قال إسحاق ابن راهويه: الطّائفة دون الألف، وسيبلغ هذا الأمر إلى

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/453، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/257. (بتصرُّف)
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/625، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/50.
(3) الرّازيّ، : مختار الصّحاح، ص: 193.

أن يكون عدد المتمسّكين بما كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه ألفا، يعني بذلك أن لا يعجبهم كثرة أهل الباطل[1].

2) ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أَصلُ الوَجهِ الجَارِحَةُ، قال تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، ولمّا كان الوجهُ أوّلَ ما يَستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهر البدنِ، استُعمل في مستقبل كلّ شيءٍ وأشرفِه ومبدئِه[2]، وَيُقَالُ: أَتيتُه بوَجهِ نهارٍ، وشَبابِ نهارٍ، وصَدرِ نهارٍ، أَي: فِي أَوَّله؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

مَنْ كَانَ مَسرورًا بمَقْتَلِ مالِكٍ***فليأْتِ نِسوَتَنَا بوَجهِ نهارِ[3]

3) ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾: أي اكفرُوا آخرَ النَّهار، وأظهرُوه مكايدةً[4]، فالمعنى: " أنّهم جاؤوا إلى محمّد ﷺ أوّل النّهار، ورجعوا من عنده، وقالوا للسّفلة: هو حقّ فاتّبعوه، ثمّ قالوا: حتّى ننظر في التّوراة، ثمّ رجعوا في آخر النّهار. فقالوا: قد نظرنا في التّوراة، فليس هو إياّه؛ يعنون أنّه ليس بحقّ"[5].

4) ﴿يَرْجِعُونَ﴾: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إِذَا عَادَ، أي: يَعُودون إلى دينكم وما أنتم عليه[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

محاولة زعزعة عقيدة المسلمين، بالإيمان في الصّباح، والكفر بالعشيّ

"اقترحت طائفة من اليهود: هم عبد اللّه بن الصّيف، عدس بن زيد، والحارث بن عوف، على إخوانهم اليهود، أن يكيدواْ للمسلمين، ويلبسواْ عليهم أمرهم، وذلك بأن يؤمن فريق من اليهود بالإسلام أوّل النّهار ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾، ثمّ يعودون فيرتدّون عنه في آخر النّهار، ليظنّ الجهلة من المسلمين، أنّهم إنّما ردّهم إلى دينهم اطّلاعهم على نقيصة وعيب في دين الإسلام، فيرتدّون هم أيضًا"[7]، وذلك

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 193.
(2) الراغب، المفردات: (وجه)
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 5/349، وابن منظور، لسان العرب: (وجه).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49، ورضا، تفسير المنار: 3/277.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/223.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع)، والسّمين، الدّر المصون: 3/250.
(7) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 366.

طمعًا في زلزلة عقيدة المسلمين، وزرع البلبلة في صفوفهم، لَعلَّهم يشكُّون في دينهم ويقولون: ما رَجَعُواْ - وهم أَهلُ كتابٍ وعِلمٍ - إلَّا لأَمْرٍ قد تَبيَّن لهم؛ فيرجعون برجُوعِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ وَسِرُّ تَكْرَارِه:

الإنْصَافُ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ

هذه الآية مِن سورة آل عمران، صدرُها نزلَ في شأن نصارى نجران، فغالبُ الحديث في السُّورة عنهم، يُؤكِّد ذلك ما ذكره الآلوسيّ عن سفيان: "كُلُّ شيءٍ في آل عمران مِنْ ذِكر أهل الكتابِ فهو في النَّصارى"[2].

وهذا القَولُ يُحملُ على الغالبِ، وإلَّا فهناك آياتٌ عديدةٌ تَخُصُّ اليهود، ومنها هذه الآية ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ﴾.

وعَلَيْه؛ فاختيارُ وصفِ طائفةٍ فيه فائدتان:

- الأُولى: عدمُ تعميم الحُكم على أهل الكتاب جميعًا.

- الأخرى: قَصْرُ هذا السُّلوك على اليهود دون النَّصارى.

ويُؤكِّد ذلك مَا وردَ أنَّ الَّذي فَعَلَ ذَلك هُم بعضُ رُؤساء اليهود، مثل كعب بن الأشرف، ومالك بن الصَّيف.

اجْتِمَاعُ أَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى الْكَيْدِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ

أمَّا عَنْ سِرِّ تكرار مجيءِ لفظ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 69] وفي هذه الآية ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ﴾؛ ففيه إشارةٌ إلى وجود أكثر من طائفة في المكايدة للإسلام والمسلمين، وكُلّ طائفة تقوم بعملٍ خاصٍّ بهَا، وهذا ظاهرٌ من سياق الآيتين؛ يُؤكد ذلك عطف هذه الجملة ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾ [آل عمران: 69]، والعَطف يقتضي

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/373.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/198.

المغايرة، وعلى ذَلك فالطَّائفة السَّابقة غَير هذه الطَّائفة، فالطَّائفة الأُولى سعَتْ إلى الإضلالِ بالمُجاهرةِ، وهذه الطَّائفة سعَتْ إلَيهِ بالمُخادعة[1].

أمَّا المقول لهم فمحذُوف، فيحتمل أَن يكون بعض هذه الطَّائفة لبعض، ويحتمل أن يكون المقول لهم ليسوا من هذه الطَّائفة[2]:

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

شِـدَّةُ عَـدَاوَةِ الْـيَـهُـودِ لِلْمُسْلِمِينَ

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقالت طائفة منهم)؛ وذلك لتقدُّم ذكرهم صريحًا في قوله تعالى قبلُ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وهذا من وضع الظَّاهرِ موضع الضَّمير، ونكتةُ ذلك: أنَّ المقامَ هنا مقامُ تسجيلِ عَداوة اليهود للمسلمين، وتربُّصهم بهم، والقرآنُ هنا يريد أن يُعلِّمنا عند وقوع الجريمة أنَّهُ لا بدَّ من تعيين فاعلها، وإلَّا فإنَّ الشّيوعُ يُضعف الدَّليل؛ ولذلك كان التَّعبير بالظَّاهر لِتَعيين الفاعلِ، وهم علماؤهم ورؤساؤهم.

وفيه أيضًا: زيادةُ تَوبيخهم على ما صدَر منهم، إذْ ذلك غَيرُ لائقٍ بمن ينتَسِبُ إلى كتابٍ مُنَزَّلٍ يحملُ الهدايةَ والنُّور، ولا سيّما العلماء؛ كلُّ ذلك يتأتَّى مِن الاسم الظَّاهر دُونَ الضَّمير.

مِـنْ طُـرُقِ أَهْـلِ الْـبَـاطِـلِ إِثَـارَةُ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ فِي قُـلُـوبِ الضُّعَفَاءِ

وممَّا يُفيده التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في نِظام الجرائم: أنَّ فيه إشارةً إلى علمائهم؛ لأنَّ أمرَ التَّشكيك، وتأويل الآيات على غير وجهها الصَّحيح لا يتأتَّى إلَّا مِن عُلمائهم، ثُمَّ إنَّ المسلك الآخر - وهو المذكور في هذه الآية - هو في خطورته أشدُّ من الأوَّل وأصعبُ في كشفِهِ؛ لأنَّهم يقولون: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/280.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/211.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فإذا امتثال المقولُ لهم هذا بأن يُظهروا إسلامَهم أوَّلَ النَّهارِ؛ فلا يَشكُّ أحدٌ أنَّهم مُؤمنون، والواقع غير ذلك؛ لأنَّهم يُعلنون الإسلام حينًا وبعد ذلك يكفرون، وفي هذا من إحداثِ الاضطرابِ بين المسلمين، وإثارة الشُّكوكِ في قلوب الضُّعفاء الَّذين لم تَرسَخ أقدامُهم بعد في طريق الإيمان.

وفيه تحذيرُ القرآن الكريم لأهل الإيمان ممَّا يُشبه هذه الحالَ، كما يُفعل الآن من تجنيد أناسٍ يندسُّون بين أهل الإسلام؛ حتَّى يُظنَّ أنَّهم منهم، وهم في الأصل مُرسلُونَ للكيدِ منهم.

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

قَوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل أَمر، وهو جارٍ على الأصلِ من صُدُوره من الأعلى إلى الأدنَى، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مُؤامرات اليهود ضِدَّ المسلمين مُنَظَّمةٌ ومُتعمَّدةٌ، فتَصدر مِنْ رُؤسائهم إلى العوامِّ منهم.

وظيفَةُ القِيادَة السَّيئة

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالاِسْمِ الْمَوْصُول وَصِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ لقصد الإبهام؛ إذْ لو أرادوا الوضوحَ لقالوا: آمنوا بالقُرآن؛ لأَن التَّعبير بالقُرآن صريحٌ في أمر الإيمان، وهم لم يقصدوا ذلك، ولم يعترفوا به، فاختاروا العِبارة الَّتي تحتمل أكثر من وَجه في الدّلالة؛ لِيُلَبِّسوا على المسلمين ما يُبَيِّتون، ويُؤيِّدُ سلوكهم سبيلَ التَّمويه اختيارُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فلم يُصَرِّحوا بالمؤمنين أو بأصحاب رَسول الله ﷺ، بل قالوا: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إذ هذه الجُملةُ لها أكثر من دلالة في المراد؛ فكان الإبهامُ مَقصدًا لهم؛ لتشكيكِ قلوب الَّذين دخلوا في الإسلام حديثًا، ومازال إيمانُهم لم يرسخ في قُلوبهم رُسوخَ إيمان السَّابقين؛ فيتأثَّرون بحِيَلهم.

التَّمْويه سُلُوكٌ نَفْسيٌّ لِلْيَهُودِ

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

التَّنَبُّهُ والحَذَرُ مِـنَ اليـهـود لأنَّهم أَهلُ كَيْدٍ وَخَدِيْعَةٍ

الَّذي اتَّفق عليه أهلُ الكتاب في هذه الآية هو أن يبدؤُوا ضُحًى فيُسلِمُوا، ثُمَّ يكفروا في المساء، هذا ظاهرُ اللَّفظ، ولكن يبدو للمُتأمِّل أنَّهم يريدون أن يُسلِموا حينًا مِن الزَّمان حتَّى يُوثَقَ بهم ويُطْمَأَنَّ إليهم، ثمَّ يكفرون من بعد ذلك، على ألّا يستغرق إظهارُهم الإسلام إلَّا أمدًا يستطيعون فيه جَلْبَ الثِّقة إليهم؛ ويكونُ حينئذٍ التَّعبير كُلّه من قبيل الاستعارة التَّمثيلية، سِيقت لتُصوِّر حالهم الَّتي اتَّفقوا عليها، وهي أنَّهم يُظهرون الإيمانَ ثمَّ يكفرون بعد أمدٍ قَصيرٍ، فالاستعارةُ لتصوير سُرعة الرُّجوع وإظهار الكُفر، وتؤكّدُ التَّعاقب بين إظهار الكفر وإظهار الإسلام، كما يتَعاقب ظهورُ آخر النَّهارِ بعد أوَّله[1].

دِلَالَةُ التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾:

اعْـتِرَافُ اليهودِ بِالْحَقَائِقِ أحيانًا لَا يَـسْـتَـلْـزِمُ إِيمَـانَـهُـم بِهَا، بَلْ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِم

جِيء بالفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ بناءً على ما يقوله المؤمنون، وإلَّا فإنَّ اليهودَ يُكَذِّبون، ولا يُصَدِّقون أنَّ اللّه تعالى أَنزلَ شيئًا على المؤمنين، وظاهرُ الآية دالٌّ على وقوع أمرِ بعضِهم بعضًا أَن يقولوا ذلك، وأمَّا امتثال الأَمر من المأمور؛ فمسكوتٌ عن بيان وقوعِه وعدمه[2].

دِلَالَةُ الصِّلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الْإِيـمَـانُ بِاللهِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، مَـنِ اتَّـصـفَ بِـهِ أعزَّه اللهُ وهابَهُ عَدوُّه

قول اللّه تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحتمل أنَّ هذا القول مِن لَفظِ الحكاية بأن يكونَ اليهود قالوا: آمنوا بالَّذي أُنزل على أَتباع محمَّدٍ، فَحَوَّلَهُ اللّه تعالى، فقال: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ تنويهًا بِصِدْقِ إيمانهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1273.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/192.

ويحتمل أنَّه مِنَ المَحكيِّ بأن يكونَ اليهودُ أَطلقوا هذه الصِّفة على أتباع محمَّدٍ؛ إذ صارت عَلَمًا بالغلبة عليهم[1].

نُكْتَةُ الاِسْتِعَارَةِ والإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾:

التَّعْبِيرُ بِالْوَجْهِ فِي مُستقبلِ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفِه وَمَبْدَئِه؛ لأنَّه فِي الإِنْسَانِ أَشْرَفُ مَا فِيهِ

مِنَ المعلوم أنَّ وَجْهَ الإنسان هو أَفضلُ أعضائه الظَّاهرة منه، وأَجمعُها لوسائل الإدراك وتصريف الأَعمال، والمراد بـ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أوَّلُهُ، ولم يقل: رَأس النَّهار؛ لأنَّ الوَجْهَ والرَّأس وإن اشتركا في كونهما أوَّلَ الشَّيء، فإنَّ في الوَجهِ زِيادة فائدةٍ، وهي أنَّ به صحَّةَ المواجهة، ومنه تُعرف حقيقة الشَّيءِ، فَأُطْلِقَ الوَجْهُ على أوَّل الشَّيء؛ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّةِ.

والإضافة في قوله: ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وقوله: ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ يُرادُ بهَا التَّخصيص، واختيرَ أوَّلُ النَّهار لإظهار الإيمان؛ لكونِهِ وقتَ اجتماعِهم بالمؤمنين يراؤُونهم، واختيرَ آخرُه للكفر؛ لكونِهِ وقتَ خلوتهم بأمثالهم مِن الكفَّار[2].

نُكتَةٌ دَقِيقَةٌ فِي اخْتِيَارِ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

شُيُوعُ النِّفَاقِ فِي أَوْقَاتِ قُوَّةِ أَهْلِ الإِيمَانِ

وَجْهُ النَّهار تعبيرٌ دقيقٌ يُؤمئُ إلى معنًى خطيرٍ في سُلُوك اليهود؛ فلا يُتَصوَّر أن يُحمل الأَمرُ على ظاهره؛ بمعنى أنْ يُؤمنوا صباحًا ويكفروا مساءً، ولو كان ذلك مُرادًا لجاء التَّعبيرُ بأوَّل النَّهار، ويكون ذلك مُقابلًا لآخره؛ لكنَّ اختيارَ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهو علامةٌ على شِدَّة الضَّوء، وطُلُوعِ الشَّمس؛ فالأمورُ ظاهرةٌ وواضحةٌ، وفي ذلك إيماءٌ إلى قُوَّة المسلمين؛ فكأنَّ المعنى: آمنوا بالَّذي أُنزل على الذين آمنوا في وقت قوَّتهم وانتصارهم كما في غزوة بدرٍ، واكفرُوا آخرَه عند ضَعفِ المسلمين؛ لأنَّ الرُّؤية في آخر النَّهار لا تكون بالقوَّةِ نفسِهَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/280.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/218، والإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/173.

الَّتي تكون في وَجْهِهِ، وهذا يُومئُ إلى ما حدث في غزوة أُحُد من جَرحٍ وقتلٍ وانكسارٍ للمسلمين؛ إذ التَّعبيرُ بوجه النَّهار وآخره يُشير إلى مرحلةِ القُوَّة والضَّعف؛ يُقوِّي هذا أنَّهم عبَّروا مع وجه النَّهار بالإيمان، ومع آخره بالكُفر دُون النِّفاق.

وبين ﴿ءَامِنُواْ﴾ و﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ﴾: طباق الإيجاب، وبين ﴿وَجۡهَهُۥ﴾ و﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ إيهامُ التَّضادِّ؛ لأنَّ ضدَّ الآخرِ: الأوَّلُ، ومجموع ذلك يُعطِي أنَّ الآيةَ من باب المقابلَةِ.

سِرُّ اختيارِ (لَعَلَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾:

هذا الاختِيَارُ لَه دلالةٌ لغويَّةٌ وسُلُوكيَّةٌ؛ فاللُّغويَّة: الرَّجاء، أمَّا السُّلوكية؛ فتَتَمثَّل في أنَّهم يَطمعُون في تشكيك المُسلمين في دِينهم، وأن يَعودوا إلى وثنيتهم، وغاب عنهم أنَّ ذلك يُخالف طبيعةً بشريَّة مفادُها أن مَنْ عرفَ الحقَّ لا يَرجع عنه، والمسلمون على حقٍّ؛ فدينُهم حقٌّ، وكتابُهم حقٌّ، ورسُولُهم حقٌّ؛ فكيف يرجعون عن ذلك؟!

مِـن عَـلامـاتِ الْحَقِّ أَلَّا يَرْجِعَ عَنْهُ مَنْ عَرَفَهُ

ولذلك فَطِنَ إلى هذه الحقيقة (هرقلُ) مَلِكُ الرُّوم؛ (لَمَّا ذهب أبو سفيان إليه ليَسْتَعْدِيَه على النَّبي ﷺ وأَصْحابِه؛ سأله: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فقال أبو سفيان: لا؛ فقال (هرقلُ): وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوب)[1].

هكذا فَطن (هرقلُ) إلى هذه الحقيقة، وهم لم يفطِنُوا إليها؛ لأنَّ الحِقد أعمَى قلوبهم، وأفقدَهم عُقولهم؛ إذ لا يُعقل أن يَترُك الإنسان السَّوي الحقَّ بعد معرفته عُمُومًا؛ فكيف بالقرآن وهو الكتاب الحقّ؟!

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بالفِعْلِ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ دون (يُرَدُّون):

اختِيرَ التَّعبير بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنَّ الرُّجوعَ فيه معنى العَودة دُون إكراه؛ بخلاف الرَّد فقد يكونُ فيه إكراهٌ؛ لذا كان التَّعبيرُ بالرُّجوع

مُبَالَغَةُ الْيَهُودِ فِـي تَـعْـمِـيَـةِ كَيْدِهِمْ

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (7)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1773).

هنا هو المناسبَ لخداعهم، وفيه أيضًا المبالغةُ في تَعْمِيَةِ كيدِهم؛ فالتَّعبير بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يُخفي أمرَهم؛ بخلاف ما لو وقع التَّعبير بلفظٍ فيه إكراهٌ؛ فإنَّ أمرَهم ينكشفُ، وسرَّهم يفتضِحُ.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

رِدَّةُ المُسْلِمِينَ عَنْ دِينِ اللهِ القَوِيمِ هَدَفٌ يَهودِيٌّ خَبِيثٌ لا يَنقَطِعُ

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بيانٌ لمقصدهم؛ وهو رجاءُ أن يرجعَ بعضُ المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان، ولكنَّهم عبَّروا عن بعضهم وأرادُوا بذلك الجميعَ على جهة المجاز المرسل بعلاقة العموميَّةِ؛ إذ لا يمكن أن يَرْجِعُوا جميعًا، بَلِ الَّذي يُرجى رُجوعه مِن المسلمين هو الضَّعيف غيرُ القويِّ في دينه، غير المُطمئن في يقينه، إلَّا أنَّ كفر هذا الفريق بعد إيمان يُحدث اضطرابًا في جماعة المسلمين، وحيث جرى الشَّكُّ في الجماعة؛ كان وراءه التَّفرّق ثُمَّ الفشل الذَّريع[1].

والتَّعبيرُ بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بصيغة الفعلِ المضارعِ إشعارٌ بأنَّهم لا يطمعُون رجوعَهم عن دينهم دفعةً واحدةً؛ لعدم إمكان ذلك، وإنَّما يكون ذلك شيئًا فشيئًا، كلَّما رجعت طائفةٌ تلَتْهَا أخرَى، فيكون في مجموعِ ذلك معنَى التَّجدُّدِ.

ومُتعلِّق الرُّجوع محذوف، والتَّقدير: يرجعون عن دينهم[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَمَاعَة والطَّائفة والفرقة:

الطَّائفة: الجماعة، وسُمِّيت بذلك لأنَّه تُسوَّى بها حلقةٌ يُطاف حَولها، والطَّائفة تُطْلَق على الواحد فما فوق، يُؤكِّد هذا قول مجاهد: الطَّائفةُ واحدٌ إلى الأَلْفِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1273.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/211.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/199.

أمَّا الجماعةُ فهي تُشير إلى الكَثْرَة، والفِرْقَة أكثر من الطَّائفة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]، فالطَّائفة مأخوذة من الفرقة، وعليه فالقُرآن مُنصف في حُكمه، فلَمْ يسند هذه الفِعلة النَّكراء إلى كلِّ اليهود، بأن يقول: وقالت جماعةٌ، أو يسندها لأغلَبهم بأن يقول: وقالت فرقةٌ، بل قال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ لأنَّ الَّذين قالوا ذلك عددٌ قليلٌ من رُؤساء اليهود وأحبارهم.

الإنزَال والتَّنزيل:

الإنزَال: هُوَ نقل الشَّيْء من أَعلَى إِلَى أَسفَل، وَهُوَ إِنَّمَا يلحق المعَاني بتوسّط لُحُوقه الذّوات الحاملة لَهَا، وَيُسْتَعمل في الدَّفعيّ (أي دفعة واحدة)؛ لِأَنَّ (أَفْعَلْتُهُ) يكونُ لإيقاع الفِعْل دفْعَة وَاحِدَة. والتَّنزيل: يستَعملُ في التَّدريجي؛ لِأَنَّ (فَعَّلْتُهُ) يكون لإيقاع الفعل شَيئًا فَشَيئًا. وَقَوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، بِمَعْنى أنزل كـ (خَبَّر) بِمَعْنى (أَخْبَرَ) فَلَا تَدَافُع. وَقيل: الإنزَال بِوَاسِطَة جِبرِيل، والتَّنزيل بِلَا وَاسِطَة[1].

وخلاصةُ القَول في التَّفريق بينَ الإنزال والتَّنزيل أن الفِعلَ (أنزل) يُشير إلى الإنزال جُملةً واحدةً، بخلاف (نزّل) فيُشير إلى التَّنجيم والتَّكثير غالبًا، وهذا يكون بحسب القَرينة والمقام، وعلى هذا فقولُ طائفة من اليهود: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ دون (بالَّذي نُزِّل) يخدم هدفهم في المكر بالمسلمين؛ لأنَّ الفِعْل (أنزل) يُشيرُ إلى الإنزال جُملة كما سبق، وهم لا يُريدون التَّفصيل في أمر المُنزَّل؛ لأنَّ الَّذي يبحث عن التَّفصيل، يبحثُ عن الحقيقة، وهم عنها مُبعدون.

الرُّجُوع والإياب:

الإياب هُوَ الرُّجُوع إِلَى مُنتَهى المَقْصد، وَالرُّجُوعُ يكون لذَلِك وَلغيره، أَلا ترى أَنَّه يُقَال: رَجَعَ إِلَى بعض الطَّرِيق، وَلَا يُقَال: آبَ إِلَى بعض الطَّرِيق، وَلَكِن يُقَال إِن حصل في المنزل؛ وَلِهَذَا قَالَ أهل اللُّغَة: التَّأويب أَن يمضِي الرّجل في حَاجته، ثمَّ يعودُ فَيثبت في منزِلِه، وَقَالَ أَبُو حَاتم رَحمَه الله: التَّأويبُ أن يسيرَ النَّهَارَ أجمعَ؛ ليَكُونَ عِند اللَّيْل في منزِلِه؛ وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنّ القِيَامَة مُنْتَهى قصدهم؛ لأَنَّهم لَا منزلَة

(1) الكفوي، الكليات، ص: 196.

بعْدهَا، وهو وعد اللّه لهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرّعد: 29]، هو الرّجوع والإياب الى اللّه نفسه، لا إلى ما سواه، يدلّ عليه قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ [النّبأ: 39][1].

الإنابَة والرُّجوع:

الرُّجوعُ عامٌّ في الطَّاعةِ والمَعصيةِ، بخلاف الإنابة، فهي الرُّجُوع إِلَى الطَّاعَة، فَلَا يُقَال لمن رَجَعَ إِلَى مَعصِية: إِنَّه أنابَ، والمُنيبُ اسْمُ مَدحٍ كالمؤمن والمُتَّقي[2]، وفيه تأويلات: أقربها إلى لفظ الرّجوع، أنّه المُقبل بتوبته، كما قال قتادة، ويستشهد عليه بقول الشّاعر:

أَنَابَ إِلَى قَوْلِي فَأَصْبَحْتُ مُرْصِدًا *** له بِالمُكَافَاةِ المُنِيبَةِ وَالشُّكْرِ[3]

(1) اسماعيل حقّي، روح البيان: 4/375.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 302 - 303.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/435.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»